

الكندى ورجال الدين

للدكتور أحمد فؤاد الأهواني

—♦♦♦—

بين الفلسفة والدين ، وبين الفلسفة ورجال الدين ، خصومة قديمة تذهب إلى أبعد المصور ، ولا تزال سارية حتى اليوم . فقد كانت التهمة التي وجهت إلى سقراط أنه أنكر آلهة اليونان ، ومن أجل ذلك حكموا عليه بالإعدام . وتاريخ الحضارة الإسلامية يسجل صراعاً مستمراً حاداً بين الفلسفة ورجال الدين ، اشتهر بعضه ، وخفي عنا بعضه الآخر . وأظنك لا تجهل كيف نهض الغزالي يهاجم الفلسفة هجوماً عنيفاً في كتابه تهافت الفلاسفة ، وانبرى له ابن رشد يفتد أقواله في « تهافت التهافت » كما أوفى في التوفيق بين الفلسفة والدين ، ويدعو إلى رفع الخلاف عنهما كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ».

صحيح ، ولكن هذا من الدين ، وليس هو الدين ! وهذا شأن كل شريف ، يستوى فيه الشرفاء جميعاً ، فامعنى تفريقهم إلى مؤمنين وملحدين وعباد وثن ؟

وهذا كله للحياة الدنيا ، فما الدين نعمله للحياة الأخرى ؟ لا ، بل الدين ، أن تتصل بالعالم العلوى ، وأن تراقب الله ، وأن تعلم أنه مطلع عليك أبداً ، وأنه يرعاك بعينه فترعاه بقلبك وتطيعه بجوارحك .

هذه غاية الخلق ، وهذا سر الوجود ، ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، لا عبادة عادة ، وصلاة رياضة ، وصوم استشفاء ، وحج سياحة ؛ بل العبادة التي يحس بها القلب خلاوة الإيمان ، ويذوق فيها لذة العبودية ، ويستشعر فيها القيام بين يدي الله . ولتفانس مع ذلك في ميدان الحياة ، ولتفحم لجنتها ، ولتأخذ أوفر قسط من طيباتها ، ومن علومها ومن فنونها ، ولتسكن قويا ، ولتسكن غنياً .

هذه حقيقة الدين ، وهذه غاية الحياة ، فهل يصل إلى الغاية من مشى أربعين سنة مائلاً عنها ، ضالاً طريقها ؟

ألا يا ضيمه هذه السنين الأربعين !

(دمشق س . ب ١٩)

على الطنطاوى

ولا نحب أن نستعرض كل ما وقع في تاريخ الفكر ، فالخصومة أشهر من الاستمراض ، ولا نحتاج إلى استرسال . غير أننا نحب أن نشر صفحة طواها التاريخ أجيالاً ، وسمى الباحثون عنها فلم يجدوا إلا ظلالاً وخيالاً ، تلك هي صفحة الكندى ، فيلسوف العرب ، الذى ضاعت كتيبه ، وطويت في بطون المخطوطات ، حتى كشف حديثاً عن جملة من رسائله : تفصح عن فلسفته ، وتلقى الضوء على مذهبه .

وسوف نحدثك في هذه الكلمة عن جانب واحد من جوانب فكره : هو موقفه من الدين ورجاله ، فنذكر طرفاً من احتجاجه ورجاله .

فقد شاع عن الكندى أنه ينتسب إلى يونان ، وأنه كفر بعد اصطناع آرائهم في الفلسفة ، كما روى العمودي في مروج الذهب فقال : « وقد كان يعقوب الكندى يذهب في نسب يونان إلى ما ذكرنا : أنه أخ اقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار يذكرونها في بدء الأشياء ... وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ في قصيدة له طويلة ، ووكد خلطه نسب يونان بـاقحطان على حسب ما ذكرنا آنفاً في سدد هذا الباب ، فقال :

أبا يوسف إني نظرت فلم أجـد

على الفحص رأياً صح منك ولا عقدا

وصرت حكماً عند قوم إذا امرؤ

بلاهم جميعاً لم يجد عندهم عندا

أقرن إلحاداً بدين محمد فقد جئت فينا يا أختا كندة إذا وتخلط يونان بـاقحطان ضلة لعمري لقد باعدت بينهما جدا ونحن نرى أن الكندى يرى من التهمتين جميعاً : تهمة الانتساب إلى اليونان ، وتهمة الإلحاد . وإنما شاع ما شاع عنه بدافع إغراء الحساد والمنافسين . ذكر ابن النديم في الفهرست عند الكلام على أبي معشر النخعي « أنه كان أولاً من أصحاب الحديث . وكان يضاغن الكندى ، ويثرى به العامة ، ويشنع عليه بعلوم الفلسفة » .

وأنصفه المغفور له مصطفى عبد الرازق في بحث له عن الكندى فقال : « هكذا يبلغ المبت بالتاريخ حداً يشوه من خلق الكندى ومن عقله ، وقد كان الرجل في خلقه وفي عقله

من أعظم ما عرف البشر .

وأكبر الظن أن المعاصرين للكندى أضافوا إليه القول بالانتساب إلى يونان ، لما رأوه من انصرافه إلى البحث في الفلسفة اليونانية ، ونقل آراء الفلاسفة وكتبهم إلى العربية ، مع تحييد هذه الآراء والدفاع عنها . ذكر القفطى في أخبار الحكماء أن الكندى هو المشتهر في الملة الإسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية . وقال ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء « حذاق الترجمة في الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفريخان الطبري » .

كان الكندى إذن من حذاق المترجمين عن اليونانية ، وله في الدفاع عن الفلسفة اليونانية حجة لطيفة خلاصتها أن الفرد الواحد لا يستطيع بلوغ الحق وحده ، فلا بد من التعاون في الفكر والأخذ عن المتقدمين إلى أن قال : ^(١) « وغير ممكن أن يجتمع في زمن المرء الواحد وإن اتسعت مدته ، واشتد بحثه ، ولطف نظره ، وآثر الدأب ، ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث ، وإتقان النظر وإتقان الدأب في أضفاف ذلك من الزمان الأضفاف الكثيرة . فأما أرسطوطاليس ، مبرز اليونانيين في الفلسفة فقال : ينبغي لنا أن نشكر آباء الذين أتوا بشيء من الحق ، إذ كانوا سبب كونهم ، فضلاً عن أنهم سبب لهم . وإذ هم سبب لنا إلى نيل الحق ، فما أحسن ما قال في ذلك » .

ثم أضاف بعد ذلك : وينبغي لنا ألا نستحي من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم البائنة ... »

ولسنا ندرى هل كان الكندى هو الذي بدأ الهجوم على رجال الدين ، أم كان يدفع عن نفسه هجماتهم . ذلك أن الفلسفة لم تكن قد أرغلت في الحضارة الإسلامية ، ولم يكن المهدي بينه وبين عصر السامون بعيداً ، والسامون كما نعرف هو الذي شجع حركة النقل وأنشأ في بغداد دار الحكمة ، وبث في طلب كتب الطب والفلسفة وأجرى الأرزاق على المترجمين ، وكان أغلبهم من السريان . والراجح أن الكندى هو أول فيلسوف عربي ، وأول ناقل عربي ، ولهذا قالوا عنه « فيلسوف العرب » .

وكانت السنة رجال الدين حادة عنيفة. ترمى المشتغلين بالفلسفة

(١) كتاب الكندى إلى المنعم بأمر في الفلسفة الأولى .

بالكفر ، على الرغم من دفاع الخلفاء عنهم في صدر حركة النقل . وهذا هو السبب الذي دعا الكندى إلى الحذر في نقل جميع آراء أرسطو ، وفي ذلك يقول : « توقيا سوء تأويل كثير من التسمين بالنظر في دهرنا من أهل الغربة عن الحق ، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق ؛ اضيق فطنتهم عن أساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة في الرأي والاجتهاد في الأنفاع العامة الشاملة ، ولدراسة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية ، والحاجب بسدف سجونه أبصار فكرهم عن نور الحق ووضعهم ذوى الفضائل الإنسانية — التي قصروا عن نيلها ، وكانوا منها في الأطراف الشاسعة — موضع الأعداء ، ذكاً عن كراسيهم المزورة التي نصبوها من غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عديماء الدين ؛ لأن من تجر بشيء باعه ، ومن باع شيئاً لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين .

ويحس أن يتعمرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بمحققاتها وسماها كفرة ؛ لأن في علم الأشياء بمحققاتها علم الربوبية ، وعلم الوجدانية ، وعلم الفضيلة .

وجملة كل علم نافع والسبيل إليه ، والبعيد عن كل ضار والاحتباس منه ، واقتناء هذه جميعاً هو الذي أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ؛ فإن الرسل الصادقة ، صلوات الله عليها ، إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده ، وب لزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل في ذواتها وإشارها »

فأنت ترى أن الخصومة كانت عنيفة بين الطرفين ؛ فرجال الدين يرمون الكندى بالكفر والإلحاد ، ويذهبون إلى أنه يحمل يونان أخا قحطان ، والكندى يرمى رجال الدين بأنهم يتجرون بالدين وهم عديماء الدين ، ويطلب منهم الحجة إن كان عندهم برهان أو دليل .

يقول عنهم إنهم يتسمون بالنظر وهم أهل غربة عن الحق ، وأنهم يتوجون بتيجان الحق بغير استحقاق ، يحجب الحسد أبصارهم عن نور الحق ، ويترهبون على كراسي الدين طلباً للرياسة وذكاً عنها ثم يبين الكندى المسلة بين الحكمة والشرعية ، بل يذهب إلى أن الدين من الفلسفة ، فهي قنية علم الأشياء بمحققاتها وفي ذلك علم الربوبية والوجدانية والفضيلة . فالفلسفة توافق الدين ؛ لأن الرسل الصادقة أتت بالإقرار بربوبية الله وحده .

ثم يحتمل الكندى لرجال الدين بحجة عقلية تضيق عليهم